التعايش أم المواجهة مع الآخر؟

خالد النويصر *

■ تتسم العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب بالتقلب والتوتر المستمرين، نتيجة تداعيات عدة من الجانبين، على رأسها التصريحات والآراء التي تطلقها بعض الشخصيات والمؤسسات بين الحين والآخر، ففي الغرب بدأت هذه التصريحات مع ما يسمى بالحرب على الإرهاب وأعقبتها التصريحات التي تمس الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم، وما زالت التصريحات متوالية في هذا الشأن، فالغرب يرى أن هنالك تياراً إسلامياً يهدد كيانه ومصالحه، بل أصبح خطراً على حضارته ومدنيته الحالية، وفي الجانب الآخر في العالم الإسلامي هناك أصوات ودعوات تطالب بمحاربة الغرب والحشد لـ «منازلة الصليبيين» وإسقاط كل المشكلات التي يمر بها العالم الإسلامي على الغرب، بل والدعوة إلى معاداة الحضارة الغربية برمتها.

إن التطاول والمساس بالأديان والرموز هو بلا شك أمر مرفوض، مهما جاءت المبررات ومهما كانت الدوافع، وعندما تُمس الأمم في رموزها وعقائدها، فإن العواطف يصعب كبح جماحها، كما أن التداعيات لا يمكن التنبؤ بها في أمة يأخذ الدين حيزاً كبيراً من تكوينها النفسي والثقافي والفكري، كما أن النفوس الغاضبة ستسقط من حساباتها كل التراكمات الإيجابية وكل العقلانية والموضوعية. فتلك العقائد والرموز هي خطوط حمراء في حياة الأمم فلا بد لها من أن تراعى ولا بد لها من أن تُحترم.

والواقع أن هنالك أصواتاً نشازاً في الغرب تزيد من وتيرة تنامي العداء والكراهية وتساعد على تراكم أنماط سالبة في العقل الجمعي الإسلامي تجاه كل شأن غربي، ملقية عليه ظلالاً من التوجس والشك والريبة مهما كانت هنالك جوانب مشرقة ومضيئة في الحضارة الغربية. فهذه الأصوات والدعوات ما فتئت تزرع الأشواك والمصاعب في صميم علاقة العالم الإسلامي مع الغرب، وللأسف فلن يكون الحصاد إلا من جنس الزرع، بخاصة بعد أن تسنم أصحاب هذه الأصوات مواقع صنع القرار السياسي والثقافي في الغرب، فهذا الفريق المتشدد يؤمن بنظرية «صدام الحضارات» بعد أن أفلت شمس فريق «حوار الحضارات»، وفي الجانب الآخر، فإن هنالك أيضاً تياراً يرفض التعايش مع الغرب، ويرى في وجوده تهديداً للإسلام ويصنّفه في فسطاط الشر، ويحث على منازلته وضرب مصالحه والدعوة إلى الهرولة نحو مزيد من الانكفاء على الذات وانتهاج سياسة دفن الرؤوس في الرمال وغضّ العيون وصمّ الآذان تجاه حضارة غربية قُدر لها أن تروِد الواقع حتى الآن وقُدر لمصالح العالم الإسلامي أن تتداخل وتتشابك معها.

إن مثل تلك التصرفات والتصريحات والحجج والذرائع لإخفاقات بعض السياسات الغربية اتخذها البعض ذريعة لمحاكمة حضارة بأكملها خرجت من ظلمات العصور الوسطى، محترمة العقل والتفكير الحر لتحكم العالم سياسياً واقتصادياً وثقافياً، تلك الحضارة التي أوصلت الغرب ليصبح اليوم واقعاً دولياً استطاع أن يفرض نفوذه وحضوره في كل القضايا الدولية المهمة والمصيرية، بل إنه قدّم واقعاً ديموقراطياً يمكن تطبيقه على أرض الواقع، على رغم ما فيه من سلبيات وإيجابيات. واستطاع الغرب أن يسوّق ويقدّم نموذجه إلى العالم، بل ويفرضه عليه، بل إنه أرسى ركائز النظام واحترام القانون وهيبة الدستور في مجتمعاته، وأسقط من حساباته كل مشروع وقرار لا يُبنى على المنهجية والتخطيط السليم، استناداً إلى خطط يعرف المختصون من خلالها وبحسابات دقيقة ماذا سيؤولون إليه في كل مدى زمني عاجل أم آجل، وهم الذين أنحوا عنهم بعيداً منهج العاطفية والعفوية إذ كان العقل دوماً حاضراً في سائر نشاطاتهم وأهدافهم، بل إن هذا الواقع يقيم وزناً لا يطاوله أي تعد أو تجاوز للسلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية وسلطة الصحافة التي تضطلع بعملية المراقبة للجميع، حيث لا كبير عليها ولا خافية يمكن أن تخطئها.

إن العالم الإسلامي يعيش مرحلة إقصاء العقل والتفكير والعيش في الماضي وإقصاء الآخر ولوم الغرب والآخرين على مشكلاته، وقد تعرضت شعوب غير إسلامية لإبادة تامة بقنابل هذا الغرب، بل وأُبيدت مدن بأكملها، كما حدث مع اليابان في القرن الماضي. ولكنهم وضعوا هذه التجربة المريرة القاسية خلف ظهورهم واستطاعوا بإرادتهم وتصميمهم بناء أمة عملاقة من تحت أنقاض القنابل الذرية واستطاعوا إيجاد معادلة جديدة تحكم علاقتهم وتحفظ مصالحهم مع الغرب، ولعل أكبر دليل على ذلك هو حجم ميزان تجارتهم وتبادل منافعهم مع الغرب.

إن لغة المصالح اليوم تفرض على الجميع ضرورات التعايش والتعامل مع الآخر، بعيداً عن تلك التصريحات والتصرفات التي لا تخدم المصالح. فالغرب يدرك تماماً أن له مصالح كبيرة في العالم الإسلامي، وقد يصيبها الضرر الفادح نتيجة لقدح بعض شخصياته في الإسلام ورموزه، كما أن المصلحة والأمر الواقع لا بد من أن يدفعا العالم الإسلامي إلى الإقلاع عن الحساسية المفرطة تجاه الحضارة والمدنية الغربية واستصحاب النظرة (البراغماتية) الواعية والكفيلة باحتضان المفاهيم الإيجابية الكامنة في ثنايا هذه الحضارة وتطويعها لخدمة المصالح والقضايا، فهي كل الإرث والحضارة الغربية كابوساً يُتوَجس منه خيفة وتتعالى صيحات التحذير منه، فالآخرون الذين تجري المجاهرة بعدائهم، هم أولئك الذين يتطلع إليهم العالم الإسلامي ويتمثلهم ويتقمص حياتهم تعليماً وثقافة وفكراً. فالحضارة والمدنية بكاملها اليوم هي صناعة غربية، بل إن جوانب كثيرة من صور الحياة الراهنة مردها إلى المدنية الغربية، فالدواء الشافي للداء العضال والسيارة الفارهة والتصميم العمراني للمساكن والتعليم والثقافة واللغات التي يفاخر البعض بمعرفتها هي كلها صناعة وثقافة غربية، فكيف تكون المواجهة مع حضارة ومدنية بأكملها ما زال العالم الإسلامي معتمداً عليها بشكل كبير؟

إن العالم اليوم في أشد الحاجة إلى حوار في جميع الشؤون والمجالات، بخاصة تنشيط حوار ثقافي ديني واسع، وفق رؤية تقوم على احترام الأديان والرموز ومراعاة واحترام المشاعر الدينية للجميع، وهو أحوج ما يكون إلى إيجاد أرضية صالحة للتعايش وقبول الآخر من أجل ترسيخ الأسس السليمة والمتينة الواضحة التي على ضوئها تُحمى المصالح والمنافع المشتركة، بل لا بد من أن يعلو صوت الحكمة والمنطق على ما عداه من أصوات نشاز، لا سيما أن عالم اليوم تشابكت فيه المصالح والروابط الدولية بشكل معقد، وأصبح عالماً أممياً، بل أضحت مفاهيم مثل الديموقراطية والسلام وحقوق الإنسان متغلغلة في سائر العالم، ومخترقة للنظرة الوطنية الضيقة. فليست هنالك عداوة دائمة وليست هنالك صداقة دائمة، وإنما هنالك مصالح حيوية للجانبين.

* محام ومستشار قانوني سعودي